آفاق

ملحق ثقافي اسبوعي

آفاق ١٨
فصل من تاريخ المقابر الجماعية: حياة حميد روبية.
نقولا زيادة: لقاء مكرم عبيد.

آفاق ١٩
مئوية أرنست كوليتشي في العالم الألباني.
جابر عصفور: الكتابة والإرهاب.

آفاق ٢٠
تحقيق عن المعارض التشكيلية في السعودية.
محمد علي فرحات: موسيقى كابول

ثلاث قصائد

سركون بولص

جزيرة الأدراج

(هيدرا، في اليونان)

أيّة نوافذ كانت مفتوحةً
لاستقبال هواء البحر المجلوّ كمرآة آهة
آتياً من الميناء في أسفل الأدراج
حيث تنطلق السنونوات بين صواري السفن
كمشة من النقاط والفوارز،
حفنةً من الحروف والكلمات
أطلقها من يِده شاعر أعمى
ليُجبّر عظامَ جملة
ويكشف لنا فجأة معناها؟
وأنا الغريب النازلُ من أحد القوارب
الى بياض الرخام في أشعة الشمس
وامرأة تحمل جرّتها الملأى من بئر مسوّرة بالنرجس
وتصعد الدرج، انها تختفي خلف باب أزرق
آخذة في إثرها الزمانَ
والعالم
تاركة نظرتي اليتيمة
تتلكأ على وجه المشلول
المتهالك على عتبة الكنيسة
يصلّي من أجل هذه الجزيرة، من أجل أهلها،
أو من يدري من أجل من، وماذا...
ويضربُ جبينه بالجدار، مرة بعد أخرى.
وأنا الواقف في مكاني، حاملاً
على ظهري
حقيبة السفر
ثمّة شيء حرّكني، ربما تلك النوافذ العالية
لأمضي في طريقي، وأصعد الدرج.

هنود الأباتشي

يُقالُ أن هنود الأباتشي
(تلك القبيلة التي أبيدت تماماً
ولم يبق منها سوى اسمها الذي
أطلقوه على مروحيّة مشهورة
بقدرتها الفائقة على الابادة)
كانوا، بعد أن صاموا طويلاً
وأنهكَ الجوعُ أجسادهم، اذا ما سمعوا الأرض
ترجفُ تحت أقدامهم، وعرفوا
أن جواميس البوفالو قادمةٌ،
يمتطون خيولهم دون سرج
وينطلقون نحو القطيع.
ما كان لمحاربٍ واحد
أن يشد قوسهً بما تبَقّى له من همّة
في يده الضعيفة
ومع ذلك
فهو يفوّقُ سهمه في الوتر
ويردي الجاموس قتيلاً في القلب.
فهنود الأباتشي كانوا يعرفون
«الروح العظيمة»
عندما تتجلى أمامهم، وتدعوهم
الى المعركة

*

وهكذا الشاعر،
هو المطوّق بصيحات القبيلة
حين يجولُ بين العظام، ويمشي
بين خرائب مدينته، يحلم أحياناً
أن يحلّق كأيّ نسر
فوق رؤوس القتلى والقتلة
آملاً أن يُجندل بكلماته
مخلوقاً رائعاً ممعناً في الهرب
وأن يُنشبَ صنّارة خياله
في لحم الفريسة.

العَقربُ في البستان

سوداءُ هي الاشكال الحاقدة
في مرابع الطين، بين ممالك الطحلب اليابس
بعد أن تخفَّ حرارة النهار،
ويرتعَ الظلُّ كتاريخ
حالك في تعريشة الباحة
المتهدلة الأغصان
على السّور:
حديقةٌ تبرد كجوهرة
تنزعها سيدة البيت
وتُودعها صندوقها المبطّن بمخمل أسود
في نهاية الحفلة.
خشخشةُ عيدان يابسة، خيطُ رماد يتبدد
كأنما على نفخة
من فم إله أدرَد، واذا بالليل
هو الليلُ كما لم يُلِيل من قبل:
لادغةُ العقرب
عالية ومعقوفة بينما تتقدم
مثل جرّافة
على الممشى
لتخلط الاسمنت بالدم في ليلة صيف
لتصلب القدَم
على خشبة الأزمان الوقحة
في مدخل الجحيم، على باب جنة مفقودة...
أنتفض قافزاً من تأملاتي
أنا الحافي القدمين
في البُستانّ
وأرمي تلك الجّرافة المبحرة
في الهواء
بأيّ شيء تطالهُ يدي
بفُنجاني، قلمي، كتابي
بانتفاضة، بتعويذة، بصيحة بحّاء
بلعنة، بفَردة الحذاء.

نافذة على البحر... بريشة بابلو بيكاسو.

عالم بلا أشجار

ربيع جابر

■ الهدر سمّة عصورنا الاستهلاكية. في إيطاليا وقّع ٣٠ كاتباً وكاتبة قبل أيام مذكرة تُدافع عن الأشجار. هذه رفاهية لا نملكها في بلادنا. مع أن أحدنا يعثر على «عالم ثالث» في روما إذا قرأ ما تكتبه «الإيكونيمست» عن برلوسكوني. إيطاليا المتوسطية تنتمي الى أكثر من عالمٍ واحد. كُتّابها يدافعون هذه الأيام عن أشجارٍ وصفها إيتالو كالفينو وصفاً مفصلاً عند منتصف القرن العشرين. «بارون» كالفينو الذي عاش حياته متنقلاً بين أشجار القرن الثامن عشر، يُذكر بالكتّاب الإيطاليين الذين يوقعون اليوم هذه المذكرة. البارون القديم حاور فولتير وحاور لصوصاً وحاور بونابرت. لكنه لم يجد حواراته هذه أكثر قيمة من بعض أعماله: ذات مرة أنقذ غابات المقاطعة من حريق. انجازه أعطاه احساساً حلواً. وهذا ليس قليلاً. من دون أن ننتبه، هذا هو بالضبط ما نبحث عنه طوال الحياة.

نبحث عن الهدوء. وعن راحة البال. نبحث عن ذلك في الصداقات، في الأهل، في تأمل السماء والأشجار والماء، ونبحث عن ذلك في الكتب أيضاً. الأدباء الإيطاليون رفعوا أخيراً مذكرة الى دور النشر يطلبون فيها طبع كتبهم على ورق «ريسايكل» يُصنع من بقايا الورق القديم والخرق البالية وورق الأشجار. هذا اقتراحهم لإنقاذ الغابات. نقدر أن نتخيل أحد هؤلاء جالساً الى طاولة يكتب رواية عن رجل يحيا في روما الآن. رجل لا يشبه ماركو فالدو لكنه – مثل كل النبلاء – يحب منظر الأشجار. الشجرة ليست منظراً عادياً. «إذا قرأت كتاباً من الغلاف الأول الى الأخير من دون أن ترى فيه شجرة واحدة، فاعلمْ أنك قرأت للتو كتاباً بائساً»، هذه كلمات خطّها انكليزيٌ عند نهاية القرن التاسع عشر. اسمه غير مهم. يكفي ان نعلم أنه أحبّ الأشجار.

الأدباء الإيطاليون يشعرون بالحزن: ٧٠ في المئة من ورق الكتب والمجلات التي نقرأها كل يوم يُصنع من أشجار الغابات. خلال الـ٣٠ سنة الأخيرة تضاعفت عمليات تدمير الغابات عدداً لا يحصى من المرات. العالم يفقد غاباته بسبب صناعة الخشب والورق، وبسبب الإهمال والتخريب والحرائق وأمراض النبات. كل ما بقي للبشرية من غابات عملاقة موجود في كندا والبرازيل. والأدباء الإيطاليون يشعرون بالحزن. كلّما خطَّ أحدهم كتاباً جديداً أعدم عدداً من الأشجار. الشجرة الكبيرة لا تكفي لصناعة مئة نسخة من رواية واحدة! في بلادنا لا نحزن كثيراً. الروائي العربي المعروف يبيع من كتابه ألفي نسخة، ومع حظ: خمسة آلاف! في بلادنا نرحم الغابات. لا نقرأ، من أجل الغابات. لكن هناك، في الغرب الرأسمالي، لا أحد يرحم الأشجار. باع «هاري بوتر» في ليلة واحدة مليون نسخة: في ليلةٍ واحدة زالت غابة صغيرة في أميركا الجنوبية!

*

أدباء إيطاليا طلبوا ورقاً مصنوعاً من ورقٍ قديم. لعل أحدهم اقترح إضراباً مفتوحاً عن التأليف والنشر. هذا ليس اقتراحاً سيئاً. (لكن المشكلة أن من يطلع بهذا الاقتراح هو في أغلب الظن صاحب كلمات نيرة، كلمات تستحق أن يقرأها الناس. فإذا أضرب عن الكتابة فقدنا شيئاً يشبه في قيمته شجرة!).

المكتبات تعجّ بالكتب. والأرصفة تعجّ بالصحف والمجلات. كل هذه الكلمات من يقرأها؟ أسراب نمل تسعى على الورق ونرميها عند المساء في سل المهملات! كل هذا الهدر الفظيع! يكفي أن تمشي في معرض كتب لتدرك هذا: معظم ما ينشر اليوم (مثله كمثل ما نُشر في الأمس) لا يجب أن يُنشر. لكن ماذا نصنع بالطبيعة البشرية، وماذا نصنع بعالمنا الاستهلاكي؟ لا نكتفي برواية واحدة لسيدني شيلدون أو دانيال ستيل أو حتى ميلان كونديرا. نريد كل عام رواية جديدة: ألا يكفي أن نخفي الرواية ذاتها في الجارور ثم نرجع إليها ونقرأها من جديد في آخر السنة؟

*

الكتب الى ازدياد مضطرد، والأشجار تتناقص. لكن من يحبّ الأشجار، هل يقدر أن يكره الكتب؟ الكلمات تقدر أن تكون حلوة مثل نور الشمس، مثل السروة الخضراء، مثل شجرة جوز وارفة الظلال. من يحب الأشجار لا يكره الكتب. الكتاب الجيد يحوي غابات كاملة. لكن الثمين قليل. الكتاب الجيد مهدد دوماً أن يضيع في ركام الكتب السيئة، كإبرة ذهب في كومة قش. وما يُقال عن «التاريخ الذي يُنصف في النهاية» قد لا يكون دقيقاً.

التاريخ يرمي الى النسيان ما ليست له قيمة. لكن التاريخ لا ينتبه دائماً للكنوز. الكنز المطمور اليوم قد لا يكتشفه في الغد أحد. قد يظلّ الى الأبد مطموراً. لعل ظلمات القرن التاسع عشر تخفي روايات كتبها مجهولون لن نسمع أسماءهم يوماً. روايات لو قرأها روبرت لويس ستيفنسون يوماً لشهق، كما شهق بينما يقرأ «اعترافات ماركوس أوريليوس».

العالم قد لا يكون عادلاً. لكنه في الأقل يُفرح بأخضر أشجاره. الهدر سمّة عالمنا الحديث. وأدباء إيطاليا يخشون عالماً مستقبلياً قاحلاً بلا شجر وبلا ظلال باردة.

الأدب حين يكتبه السلطان... والنقد المستحيل

فيصل درّاج

■ لا وجود لنص أدبي إلا مقارنة بنصوص أخرى، تضيئه وتخبر عن قديمه أو جديده. قول شائع في نظرية الأدب، يكتفي بالنصوص ولا يضيف إليها شيئاً من خارجها. وقد تستدعي المقارنة حياة بعض الأدباء، لا احتفالاً بشخص الأديب، حتى لو كان فيه ما لا يوجد في غيره، بل لإيضاح ما بدا غامضاً في نصه. يبدأ النقد من النص ويعطف عليه نصوصاً أخرى، أو يبدأ به ويعطفه على غيره، بلا حاجة الى استقدام هيئات الأدباء أو قاماتهم، مهيبة كانت لا تعوزها الأناقة أم قليلة ناحلة أقرب الى الانطفاء.

يضطرب القول السابق، بداهة، حين يقترب من نص – إشارة، كتبه «أديب» لا يساوي غيره، يتمتع بالنفوذ والاستطاعة والسلطان. يفيض صاحب السلطان الكبير على نصه، يُغرقه ويجثم فوقه، لأن في اشاراته السلطوية ما يزيح النقد الأدبي عن مكانه ويداعبه الى حدود العبث. فصاحب السلطان الذي يكتب «أدباً» يحيّر النقد ويُقلقه، أديب غريب مكتمل الحاشية، لا هو مستضعف بين المستضعفين في الأرض، كما وصف نجيب محفوظ ذاته مرة، ولا هو بالمرجع العالي المتعالي الذي احتكر السلطة واكتفى بسلطانها. أديب غريب له بقعته الطريفة بين المستضعفين، وله مساحة هائلة في ديار السلطة الآمرة. ولعل هذا الوضع الغريب هو الذي يضع أمام النقد، وهو يتأمل «أدب السلطان»، خياراً واحداً ووحيداً هو: الاحتفاء. وللنقد ما يفسّر أسبابه، ذلك ان المحتفى به، أي السلطان – الأديب، مختلف عن غيره مغايرة لسواه، أديب جاء من أحضان السلطة، وسلطان أتى من ديار الأدب. ولأن في وضعه ما يكسر قواعد الأدباء وأصحاب السلطة، يكون على النقد أن يكسر قواعده بدوره، وأن يكتفي بلطيف الأحكام.

وواقع الأمر ان في الأديب – السلطان، أو في السلطان – الأديب، ما يضيّق على الناقد ويضع في عمله عسراً ومشقة وارتباكاً ثقيل الأطراف. فالنقد لا يستوي إلا إن رأى الأدب في استقلاله الذاتي وعاينه في حقل خاص به، يحاور الحقول الكتابية الأخرى ولا يعتدي عليها. وما ينطبق على الأدب لا ينطبق على السلطة أو على الأديب الغريب، لأن حقل السلطة يتسع لجميع الحقول الأخرى، بل لا يكون كما يجب ان يكون إلا إن وضع في داخله كل ما عداه. السلطة حقل الحقول، تنشئ الحقول وتقرر تدميرها. شيء آخر يكاثر هموم الناقد الذي سقط خارج مكانه، عنوانه الواسع الشاسع: الرقابة. فإذا كان المستضعف في الأرض، مثل نجيب محفوظ، يقول ما يشاء قوله من وراء قناع، إن لم يقع على قوله أكثر من زجر وغضب، فإن الأديب – السلطان في حلٍ من هذه الهموم جميعها، ذلك انه يملك الرقيب والرقابة والسجلات، يكتب ما شاء طليقاً وينتج ما شاء من المستضعفين في الأرض، الذين يحسنون الكتابة تقريباً، أو لا يحسنونها على الإطلاق.

وواقع الأمر أيضاً أنّ في حال الأديب – السلطان ما يذيع الألغاز ويستلب الوضوح. فلو أدركته «مهنة الأدب» فعلاً لما اتخذ من السلطة مهنة، ولو أشبعته السلطة لما التفت الى «مهنة الأدب». ويصبح الأمر أكثر صعوبة إن نظر الناقد الى جهات مختلفة أخرى، تتضمن معنى الأدب وطموح الأديب وأرزاق الأدباء. لا يحتاج الأديب – السلطان الى الأضواء، فكل الكاميرات ملك له، ولا الى استفزاز السوق، فعنده ما يضمن له عيشاً كريماً وأكثر، ولا لزوم لأن ينافس الأدباء، فهم ينافسونه في سلطته ولا يحلمون بذلك. أكثر من ذلك أن الأديب الغريب يستورد تناقضاً لا يريحه ولا يقبل به، ذلك أن دور الأدب نقد السلطة، مثلما أن دور السلطة قهر الأدب وزجره. فكيف تستقيم حال سلطان – أديب يمارس الأدب ويتطيّر من وظيفة الأدب؟ أو، كيف تستوي أحوال أديب – سلطان يكون مع الأدباء وعليهم في آن؟

تعثر الحال على تفسيرها، ربما، في موقع نظري هادئ يتحدث عن «سطوة الكم»، التي تأمر الأديب الغريب أن يضع داخله كل شيء وألا يترك لغيره شيئاً. لن يكون السلطان، والحال هذه، أديباً فقط، بل تسعى إليه وظائف أخرى، كأن يكون فيلسوفاً له منهج ومتصوفاً له طريقة وسياسياً لا تنقصه الرؤى واقتصادياً طويل الباع ومشرّعاً دينياً يأتي بما لا يأتي به غيره وعسكرياً ذا خطط ومربياً ينشئ مدارس غير مسبوقة... وبداهة، فإن الكل المكتفي بذاته لا يحتاج الى الأجزاء، فهو خالق الأجزاء والسيد على الجزئي والمجزوء.

وما الأديب الفعلي إلا جزء بين أجزاء أخرى، منذ أن ارتضى بالاستقلال الذاتي للأدب، وارتضى بذاته مهنياً بين أصحاب مهن أخرى. ولهذا لن يستطيع الأديب الفعلي أن يقرأ نص الأديب الغريب. فالجزء لا يستطيع أن يطاول الكل، مثلما أن الكل قوّام على الجزء وسيد عليه. يمكن القول: ان كان نقد النصوص الأدبية العادية يتحقق في حقل القراءة، فإن نقد النصوص الأدبية الغريبة يتحقق في حقل الاحتفاء. فلا قراءة إلا للمجزوء وبالمجزوء، على خلاف «النص الكلي» الذي يأمر بالتأمل والكفّ عن طرح الأسئلة.

تأتي كتابة الأديب الغريب، ربما، من حلم قديم غريب، عبّر عنه أفلاطون ذات مرة بشعار: الملك – الفيلسوف، إذ الفيلسوف ملك بين الملوك، وإذ الملك فيلسوف بين الفلاسفة. قال أفلاطون بالمدينة الفاضلة التي تلغي المراتب محوّلة، ربما، كل البشر الى فلاسفة وكل الفلاسفة البشر الى ملوك. والقول جميل، على ضوء موضوعنا، وإن كانت فيه خطيئة «إلغاء المراتب»، التي تسوّي الجزء بالكل وتساوي بين الأديب الغريب والأديب العادي. فمدينة أفلاطون تجعل الأديب سلطاناً بين السلاطين والسلطان أديباً بين الأدباء. تطمح المدينة الفاضلة الى ما لا يمكن قبوله، لا لأنها تلغي الرقابة فقط، وهي أساس السلطة، بل لأنها تطبق الرقابة على الأديب الغريب الذي يطبق الرقابة على غيره. يأتي الحلم من أفلاطون ويسقط في التداعي، لا لسوء فيه أو فساد، بل بسبب سلطة الرقابة التي تفصل بين أديب وآخر. ربما قال أفلاطون: كل الناس رقباء وكل الناس لا رقابة عليهم، وربما يقول الأديب – السلطان: الناس مراتب ولكل مرتبة رقيبها وأعلى المراتب لا رقيب عليه، ولكل رقيب رقيب، باستثناء المراقب الأعلى الذي لا يراقبه أحد.

على رغم كل ما سبق، فإن جهد الأديب الغريب، كما ناقده، لا ضرورة له على الإطلاق. فقد قال «غرامشي» ذات مرة: «سياسي يريد أن يضع كتاباً في الفلسفة، لا ضرورة لذلك، ففلسفته الحقيقية قائمة في ممارسته السياسية». يأخذ القول ترجمة سريعة بسيطة: «سلطان يريد أن يكون أديباً، لا ضرورة لذلك، فتصوره للأدب قائم في معاييره السلطوية». يرغب الأدب بهدم الرقابة وأدواتها وبتأمين الفضاء الحر، الذي يخلق الأدباء ويكاثرهم وينتج مجتمعاً حراً، يقرأ الأدب ويميز المتخيل الأدبي من ثقافة الأدعية. فلا ضرورة لاجتياح حقل الأدب إن كان «الأديب المنتصر» قابلاً بالرقابة وعيناً على الأدباء، ولا ضرورة لاكتساح حدود الأدب إن كان مجتمع «الأديب المنتصر» لا يعيش شروط الخلق الأدبي. فالأدب، في دلالته الحقيقية، حرية وحوار وتعددية وارتقاء، حرية توقظ الحوار وتهذب المتحاورين، وحوار قوامه أفكار متعددة ومختلفة، وتعددية لا ترضى بالكل وتحتفي بالأجزاء. بغير هذا يكون الأديب الغريب وجوداً غريباً بين الأدباء، لا هو من الأدباء ولا هو معهم: فلو كان منهم لما اعترف بالرقابة وأعلى من شؤون الرقباء، ولو كان معهم لأخذ بفضيلة الكيف، التي تنقض ولع الكم وتندد بالعقل المأخوذ بكم لا متجانس، يقول بكل شيء ولا يقول شيئاً على الإطلاق، ويمتلك ما يحتاجه ولا يحتاجه وما يحتاجه ملايين المحرومين.

لا يأتي الأديب الغريب الى الأدب بل تجيء مرتبته، تحضر قبل أن يحضر، وتنتزع التصفيق قبل أن يلمس كتب الاختبار. وما ينجح في «الامتحان النقدي» هو اللقب الكبير، لا الأديب الذي يوحي بالتخفف منه والتبسط مع «الزملاء المبدعين». فهو مرتبة في الأدب لأنه مرتبة في السلطة، ومرتبة سلطوية لا تحتاج الى الأدب ولا الى الأدباء. فالسلطة يُؤتى اليها ولا تذهب الى أحد. ولهذا يصبح السلطان أديباً، ولا يصبح الأديب الحقيقي سلطاناً، ذلك ان الابداع نفي للسلطة بامتياز ونفي لولع الكم الذي لا ينتهي. والأمر كله في المرتبة، التي لا تقبل بمساواة البشر وتبرر التفاوت والامتيازات الباهظة، والأمر كله في الأدب، الذي يبدأ من مساواة البشر وينظر بغضب الى المراتب والمولعين بتجديدها. يبقى الأدب في مكانه وتظل السلطة هناك: يبقى الأديب مع الجزئي والنسبي والمتحول والمتبدل والممتلئ بالحياة، ويبقى في السلطة الكل الذي يلتهم الأجزاء والإطلاقي الذي يعتقل النسبي والمتكلس الذي يأمر بتجديد زمن السلطة الى الأبد.

يتعامل النقد الأدبي مع النص المتطوّر الذي يُقارن بغيره، ويذهب الاحتفاء الى سلطة متكيفة بذاتها، لا ترضى بالمقارنة وتعتقل ما ينمو.